Al Wasl University Journal - Issue (70) - June 2025
ISSN 2791-2949 (Online)

Imagination of the (matiyya); its substitutions and its role in the journey (Rihla) of the ancient Arab poet From the Camel of Tarfa to the Wine of Abu Nuwas

Dr. Mohamed Maztouri
College of Arts and Humanities - Al Qasimia University - Sharjah - United Arab Emirates

https://doi.org/10.47798/awuj.2025.i70.04

Received: 28-10-2023

Accepted: 02-09-2024

Published: 01-06-2025

Corresponding Author:

maztourimohamed.arabic@gmail.com

Abstract

Researchers almost agree that the Arabic poem has undergone qualitative changes in structure and subject with poets such as Abu Nawas and others, but it has preserved elements such as journey (Riḥla), which is based on the transformation from a dystopian reality into a desirable world, between them, that the poet actually crosses in reality or in the poem, from death to life or pain to pleasure. The image of maṭiyya (camel and animals ridden by Arabs) that transmits it changes between the two worlds, but the structure remains the same. This confirms that the Arabic poem is closely linked to the journey in its various forms, and that the journey has always been a tool of displacement to the world of pleasure, and has also been a source of pleasure at the same time. From the description of camel to the description of women or wine, a displacement in purposes appears, but conception of structure is the same.

Keywords: Arabic poem - Structure - Journey - rided animals - Displacement - Camel - wine.

تَخييلُ المطيّة؛ إبدَالَاتُهَا ودَورُهَا في رحلة الشّاعر العربيّ القديم من ناقة طرفة إلى خمرة أبي نواس

د. محمد المزطوري
كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة – الجامعة القاسميّة – الشّارقة – الإمارات العربيّة المتّحدة

ملخص

يكاد يجمع الباحثون في الشّعر العربي على أنّ القصيدة العربيّة القديمة قد شهدت تحوّلات نوعيّة بنيةً وموضوعًا مع شعراء مثل أبي نواس وغيره من المولَّدين، لكنّ ذلك لا يمكن أن يلغي وجود بنية كلّية جامعة تُبنَى على خطاطة، إن لم يصرّح بها الشّاعر في القصيدة، فإنّها راسخة في تصوّراته. وهي بنية ثابتة تقوم على تحقيق الانتقال من واقع بائس إلى عالم منشود، وبينهما برزخ يقطعه الشّاعر في الواقع أو في القصيدة، من الموت إلى الحياة أو من الألم إلى اللذّة. تتحوّل صورة مطيّته التي تنقله بين العالمين فتكون النّاقة أو المرأة أو الخمرة أو غيرها، لكنّ البنية تظلّ نفسها. وقد حاول البحث أن يؤكّد أنّ القصيدة العربيّة القديمة مرتبطة شديد الارتباط بهاجس الرّحلة في شكلها المحسوس أو المجرّد، وأنّ المطيّة كانت دائما ناقلا إلى عالم اللذّة، كما كانت مصدرًا للذّة في آن. من وصف النّاقة إلى وصف المرأة إلى وصف الخمرة، يظهر تحوّل في الأغراض، لكنّ البنية الذّهنية المجرّدة نفسها.

الكلمات المفتاحيّة: قصيدة قديمة – بنية – تخييل – مطيّة – رحلة – ناقة – خمرة.

© 2022 AWU Publishers/Alwasl University. All Rights Reserved.

مقدّمة

إنّ النّظر الدّقيق إلى الرّحلة في القصيدة العربيّة القديمة بوصفها تجربة وجوديّة وركنا فنيّا أساسيّا من أركان القصيدة، يظهر بوضوح أنها لم تستقرّ مع تغيّر الأحوال وتغيّر التّجربة الشّعريّة وروافدها التّخييلية، ولعلّ السّبب عند العديد من النّقّاد يعود إلى الاكتفاء بتفسير تَغَيُّر مطايا الرّحيل التي يَركَبُون؛ من إبلٍ مثّلت الوسيلةَ الأنجَعَ للجاهليين، ثمّ التحوّل إلى إلغائها أو العزوف تدريجيًّا عن التَّعويل المطلق عليها بسبب تَغَيُّرِ الظُّرُوف والإطار الحضاريّ. وتَذهَبُ هذه الآراء إلى تأويل إلغاء المطايا القديمة باعتبار أنّها لم تَعُدْ مناسبة لحياة الحَضَرِ المُستَقرّين، فتُستبدَل بالخيل مثلا لِقُربِهَا أكثر من حياة الحضَر وحوائجهم، أو تُلغَى لانتفاء الحاجة إلى استعمال مطايا قادرة على عبور الفيافي لامتناع الرّحيل المستمرّ وحلول الاستقرار محَلَّهُ. وهو ما تجلّى خاصّة بعد ظهور الإسلام وتحديدا في الطّور العبّاسي، أي أنّ التَّبرير ينحو منحى حضاريّا يعطي بَالًا للمتغيّرات الاجتماعيّة والثَقافية خاصّة فيما يتعلّق بأنماط الاستقرار. وهو تبرير مفيد من جهة الدّراسات الحضاريّة والفكريّة وفهم الأُطُرِ التي أدّت إلى هذا التحوّل، خاصّة أنّ مظاهره جليّة في الحياة اليوميّة. ولكن متى حاول الباحث إجراء المقاربة في المجال الأدبيّ وجد آفاقا أخرى للبحث وإمكانات متنوّعة للفهم والتَّأويل تغادر التّبرير التّاريخي والاجتماعيّ المُتَدَاوَلَ في المقاربات الحضاريّة والاجتماعيّة لِتَلِجَ عوالمَ التّأويل الأدبي والثّقافي القائم مبدئيّا على فهم مختلف للظّاهرة، ينطلق من محاولة تمثُّلها في علاقة بوظيفة الشّاعر والعناصر المتعلّقة بفنّ الشّعر. فرغم أنّ الانتقال من التّعويل الكلّي على النّاقة إلى إبدالها بالخيل مثلا، أو إلغائها بدافع غياب الحاجة إلى وظائفها، كان واضحا في اليوميّ من حياة العبّاسيين خاصّة، إلّا أنّ الأمر يكون أدقّ وأنجع في تناوله في مجال دراسات الأدب من وجهة نظر ثقافيّة وفكريّة تتقاطع والتصوّر الأدبي والفنّي للمطيّة. إنّ المسألة في عمقها تحتاج دراسة

لفكرة المطيّة في حدّ ذاتها ومحاولة فهم أهمّيتها ومنزلتها من فهم العربيّ للوجود والحياة والأدوار الثّقافية فيها. يتجاوز الأمر إذن مسألة الأداة التي يركبها الإنسان وتُوصِلُه من مكان إلى مكان، ليُصبِحَ متعلّقا بفكرة الانتقال والرّحيل من منظور ثقافيّ يتداخل فيه النّفسي والفكريّ ويُعبّر عنه الأدبي المتجسّد في الشّعر أساسًا في تلك الأزمنة. يُنظَر إلى المطيّة حينئذ باعتبارها أملاً يحدو الإنسان في الخروج من العدم إلى الحياة والابتعاد عن الطّلل والهروب منه إلى آفاق رحبة من الرّغبة في التّجدد والانطلاق في دروب الحياة. كما أنّ الأمر يتعلّق في التَّصور الذي يقدّمه البحث، بفكرة الدّيمومة والخلود والهرب من التّلاشي الذي يُوجِدُه المُقَامُ والحُلولُ وما يُورِثُه من جُمود ورُكود وصيرورة إلى الزّوال والامّحاء باعتبار أنّ الاستقرار صِنوُ الموت والتّلاشي في ثقافة العربيّ القديمة ولَا وَعيِه. وتبرز المَطِيَّةُ فِكرَةً أكثرَ منها أداةً ماثلةً للعِيَانِ، وتتحوّل غاياتها ودوافع حضورها من ثقافة إلى أخرى ومن تصوّر إلى غيره.

منهج البحث:

يعتمد البحث المنهج التّحليلي الاستقرائي في تفسير الظّواهر الفنّية وتأويلها لفهمها. وهو منهج يقوم على البحث عما به يمكن إثبات الظّواهر الأدبيّة والأحكام النّقدية المتعلّقة بها بناء على استقراء النّصوص وتحليل الظّواهر في إطارها. كما أنّ العمل قد أفاد من منهجيّة المقارنة التي يتيحها هذا المنهج لدراسة ظاهرة أدبيّة في نصّين متمايزين، وهي مقارنة في مستوى المنطلقات والأساليب الفنّية والدّلالات التي يبلغها الباحث باعتماد هذا المنهج.

إشكالية البحث وغاياته:

يُحاول البحث الإجابة عن سؤال مكانة المطيّة ومنزلتها في التّجربة الشّعرية القديمة، وهل تساوي تلك المنزلة ما كان لها من قيمة في واقع العربيّ؟ ومدى

وجاهة القول باستمراريّتها رغم تبدّل الأحوال واختلاف السّياقات. ويسعى من خلال ذلك إلى بيان أهمّية المطيّة ومركزيّتها في الشّعر العربي القديم، وأشكال تحوّلها من تجربة شعريّة إلى أخرى من خلال تتبّع مسار هذه الفكرة وتجلّياتها وهيئات تمثيلها في الشّعر العربي من الجاهليّة إلى العصر العبّاسي، وكيف حافظ الشّعراء على حضورها فكرة رغم تغيّر صور تمثيلها.

كما يسعى البحث إلى بيان معالم بنيان المطيّة وصورها وعناصرها، وخطط الخطاب التي ترد وفقها في القصائد باختلاف الأزمنة وأجيال الشّعراء.

ويحاول البحث أن يدرك وعي الشّاعر العربي بوظائف الشّعر، وأهمّها الوظيفة الجماليّة والوظيفة التّعبيرية.

الدّراسات السّابقة:

لعلّ أهمّ الدّراسات التي تناولت بالدّرس فكرة الرّحيل ضمن قضايا أخرى، بحث المستشرقة سوزان ستيتكيفتش، عنوانه:

- القصيدة العربيّة وطقوس العبور: دراسة في البنية النّموذجيّة»، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، المجلّد الستّون، ج١، يناير ١٩٨٥. ولكنّ هذا البحث لم يعرض لمسألة المطيّة بشكل مباشر، وتكمن أهميّته بالنّسبة إلى موضوع البحث في أنّه انتبه إلى أهميّة فكرة الانتقال وإلحاحها على الشّاعر العربي. ويجد الباحث بعض الدّراسات الأخرى التي اهتمّت بصورة النّاقة في الشّعر العربي. ولكنّ كلّ هذه الدّراسات تناولت جوانب عرضيّة من موضوع البحث ولم يكن هدفها الأساسيّ تتبّع فكرة المطيّة في الشّعر العربي. كما يجد الباحث فائدة مهمّة في دراسة وهب أحمد روميّة:

- شعرنا القديم والنّقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلّد ٢٠٧،

مارس ١٩٩٦. ويعرض الكتاب إلى أهميّة النّاقة ودورها في حياة الشّاعر العربي خاصّة في الفصل الموسوم بـ«رؤية الذّات في القصيدة العربيّة القديمة».

ولكنّ ذلك لا يعني عدم الإفادة من دراسات علميّة أخرى، وإن كانت تعرض للموضوع من جوانب مختلفة أو تقارب أجزاء منه أو تدرسه من زوايا نظر وأهداف بحثيّة مختلفة. ويعرض البحث مجموعة من هذه الدّراسات على سبيل الذّكر لا الحصر، باعتبار أنّها أقرب إلى موضوع البحث، وهي:

- العربيّة: ويبدأ البحث بتلك التي عرضت لدراسة منزلة النّاقة وصورتها في الشّعر العربي القديم، والجاهلي خاصّة.
- حسن رائد، الحاج: الناقة: الواقع والرمز: دراسة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ٢٠٠٥.
- بشير، عبد العالي: صورة النّاقة في النصّ الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٦.

ثمّ ما عرض منها لدراسة الخمرة في شعر أبي نواس.

- حسين (طه): حديث الأربعاء، الطّبعة ١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣.
- المنّاعي (مبروك): في إنشائيّة الشّعر العربي، دار محمد علي. تونس ٢٠٠٦.

الأجنبيّة:

- Bruno (Paoli): Deux études sur la poésie bachique arabe: 1. Les précurseurs d'al-Hîra. Hal open science. 2008.
- Stetkevych (Susan): Early Islamic Poetry and Poetics, The formation of the classical islamic world. Routledge, London- New York. 2016. Volume 37.

خطّة البحث:

قام البحث على مقدّمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

تعلّقت المقدّمة بعرض موضوع البحث وتوضيحه، وتحديد دوافعه وغاياته وخطّته وأهميّته والدّراسات السّابقة.

وجاء في التّمهيد عرض لأهميّة فكرة المطيّة في حياة الإنسان العربيّ وأثر البيئة في التّأسيس لهاجس الرّحيل.

وعرض المبحث الأوّل لصور المطيّة وتمثيلاتها في الشّعر الجاهلي من خلال تجربة طرفة بن العبد الشّعرية، وكيفيّات تشكيل بنيان المطيّة / النّاقة عنده ودلالاتها.

وركّز المبحث الثّاني على تغيّر صورة المطيّة في تجربة أبي نواس الشّعرية في مقابل ثبات مفهومها ووظيفتها، وسعى إلى بيان أثرها في شعره.

ولخّصت الخاتمة أهمّ النّتائج. ليليها ثبت بأهمّ مصادر البحث ومراجعه وترجمتها إلى الأنجليزيّة.

التّمهيد: فكرة المطيّة في رحلة العربيّ

خلافا لما يُذكَرُ في كثير من الدّراسات خاصّة الاستشراقيّة منها[1] من أنّ العربي كان في صحرائه مشغولا فقط بالحرب والبحث عن الماء، وأنّ حياته كانت أقرب إلى البدائيّة، فإنّ هذا العَالَمَ الذي مازال يحتاج دراسة وفهما وتدقيقا من مختلف جوانبه، مَلِيءٌ بالأسرار والخفايا. ولعلّ منزلة الشّعر في المجتمع العربي القديم تُغرِي بالنّظر في المدوّنة الشّعرية وما تعلّق بها من ظواهرَ وخطاباتٍ كالخطاب

١- راجع في ذلك مثلا؛ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجّار، دار المعارف، مصر، ط٥، د-ت.

النّقدي وكتب التَّاريخ والكتب التي جمعت أيّام العرب[١] وغيرها ممّا يضيء جوانب من حياة العرب وتصوّراتهم في تلك الفترة المُؤَسِّسَةِ للثّقافة العربيّة الغَنِيَّةِ بالفِكْرِ وطُرُقِ فهم العالم والحياة ومنزلة الإنسان منها ومشاعره وأهوائه. فالشّعر، رغم ارتباطه بالخيال في مستوى الفضاء الشّعري للقصائد، إلّا أنّه لا يخلو من رصد لطبيعة المجتمع ونظرة الفرد إلى منزلته ودوره وتصوّراته وفهمه للعالم والوجود وتفكيره في كيفيّة تصريف الحياة في هذا العالم. ومن هذا المنطلق تُظهر القصائد القديمة بحث العربيّ في رحلته في الحياة عمَّا به يمكن أن يطوّع المُتَاحَ في مجاله الصّحراوي ليستطيع التّأقلم مع الفضاء الذي يَحوِيه.

لم ييأس العربيّ من شظف العيش وقسوة الحياة وعُسرِهَا، ولم يفكّر في مغادرة أرضه، بل كَان أَنْ تَأَقلَمَ مع تلك الحياة بكلّ خواصّها وعُسر ظروفها، وكانت له فلسفة[٢] في هذا الاختيار الذي قرّره. قامت هذه الفلسفة على فكرة الانتقال في المكان، فالعربيّ، وإن كان يؤمن بفكرة المأوى، إلّا أنّ مأواه كان واسع الحدود ليمتدّ إلى كامل الأرض العربيّة التي كان يعيش فيها، والبوادي خاصّة[٣]. ومن بين الأدوات التي اهتدى إلى اعتمادها المَطيَّةُ باعتبارها أداةً وفكرة، فهي أداة إذا ما تعلّقت باختصار المسافات الطّويلة في البحث عن مصادر الماء والقُوت له ولِحَيَوَانِه وتوفير ما به يمكن الانتقال في هذا الفضاء البدويّ الذي لا يتيح الاستقرار، ورحلة اقتفاء أثر القبائل في تنقّلاتها ورحلات الصّيد. ومن هذا المنطلق جاءت فكرة المطيّة بالنّظر إلى أنّها تقوم على تسخير إمكانات البادية

١- جاد المولى (محمد أحمد) والبجاوي (علي محمد) وإبراهيم (محمد أبو الفضل): أيّام العرب في الجاهليّة، دار إحياء الكتب العربيّة، ط٢، ١٩٤٦.

٢- الكندي (سلام): الرّاحل على غير هدى: شعر وفلسفة عرب ما قبل الإسلام، تعريب محمد بنعبود، دار الجمل، كولونيا- ألمانيا، ٢٠٠٨.

٣- يمكن العودة إلى قصيدة ميسون بنت بحدل الكلبي التي تتحدّث فيها عن وطنها، ولكنّه وطن بمواصفات خاصّة أهمّها الامتداد والاتّساع، هو البادية التي تتنقّل فيها القبائل العربيّة. والقصيدة تلك التي مطلعها:
[من الوافر]
لَبَيتٌ تَخفِقُ الأَروَاحُ فِيهِ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِن قَصرٍ مُنِيفِ

لسدّ النّقص، فكانت المطيّة التي يمكن أن يُفهَم توظيفها في إطار نظريّة النّجاعة والغائيّة[1]، تلك التي تقوم على أنّ الحاجة تلحّ على الإنسان للبحث عن وسائل وحلول لتنظيم الحياة. وتبرز المطيّة من ناحية ثانية فكرةً تتجاوز مجرَّد أداة انتقال من مكان إلى آخر إذا نُظر إليها نظرا عميقا وشاملا، فلا تُختزَل في صورة الحيوان قديما أو وسيلةِ الرّكوب عموما والسَّفرِ، بل تُجَاوِزُ ذلك إلى اعتبارها مَنفَذًا للحياة وأداةً لاستقبال الوجود والانتقال بين عوالمه والخروج من تقلبّاته إلى فضاءات أكثر أمانا وأوفر أملا في التّجاوز والاستمرار. تخرج المطيّة بهذا المعنى من العالم المادّي المتَجَسّدِ «الهُيُولى[2]» أو التّجسيد الماديّ إلى عالم المُتَصَوَّرَاتِ والأفكار التي تتشكّل داخل الأبنية الذّهنية للإنسان لتكون جزءًا من تصوّره للعالم ومنزلته فيه وتجلّيًا لفهمه كيفيّات تصريفِ شُؤُونِ الحياة والظَّفَرِ بحلول لِمَا يعترضه من مَشَاكِلَ يمكن أن تُوقِفَ مَسِيرته في الحياة. فتصبح المطيّة بهذا المعنى المُجرَى في الشّعر أداةً لتجاوز الألم واليأس إلى عوالم فسيحة من إمكانات الحياة والأمل، تنقل الشّاعر من الطّلل المُوحِي بالموت والاندثار إلى مدارات الحياة التي تُغرِي بالتّجربة.

١– تجلّيات تخييل المطيّة وتمثيلها في رحلة الشّاعر الجاهلي:

يبحث الإنسان عمَّا به يبلغ غاياته في فضائه الذي ينتمي إليه. وقد وجد العربيّ في النَّاقَةَ خَيرَ مَطِيَّةٍ يحقّق بها غايته المُثلَى، وهي غاية البَقَاءِ، عبر إجرائه بمختلف أضربه من طعام ولباس وتنقّلٍ ومعتقد وغيرها من المطالب التي تمثّل المطيَّةُ وسيلةً مُثلَى لتحقيقها. كانت النّاقةُ أجلَى تَمثِيلٍ للمطيّة لاعتبارات عدّة؛ منها أنّها أفضل

1- Titlestad (Michael): Contesting Teleology as Literary Interpretation. In Research in African Literatures. Indiana University Press. Vol 48. N2. Summer 2017. Pp. 76-88.

٢- أصل لفظ "الهَيُولى" (Hyle) يونانيّ، وعُرّبت بلفظها، وتعني: «الأصل أو المادّة». والهَيُولَى (عند القدماء): «مادةٌ ليس لها شكل ولا صورة معيّنة، قابلةٌ للتشكيل والتصوير في شتَّى الصور، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاءَ العالم الماديّة». كما ورد في المعجم الوسيط.

الممكنات المتوفّرة في فضاء العربيّ البدويّ، وقد بلغت درجات من الإعلاء من شأنها وتمييزها في حياته، لعلّ الدّليل الأهمّ على وجاهة فكرة انتقال النّاقة من مستوى الإجراء التّجسيدي إلى مستوى الفكرة النّظرية وارتباطها بالأفق التصوّري، ما آلت إليه في حياة البدويّ بعد مراحل من التّوظيف المرجعيّ في الواقع لتستحيل عِبَادَة، وتُقام لها طقوس يمكن من خلالها فَهمُ هذه الفكرة عند بعض قبائل العرب وأحيائهم في الجاهليّة وتفسيرها، باعتبار البُعدِ التَّصوّري الذي صارت تشتمل عليه والقائم في عالم الفكر من خلال انتقالها من الفضاء المرجعيّ مَطِيَّةً لتيسير أمور الحياة إلى رمزٍ تصوّري. لقد ارتحل العربيّ على النّاقة وجاب الفيافي وهو يركبها، وكانت وسيلته لإدراك غايات عدّة[١]. وقد كان للنّاقة في الشّعر العربي توظيف تصوّري ذهنيّ من خلال التّعويل عليها بحضورها وعَنَاصِرَهَا (أطرافها) في الصّورة الشّعرية أصلا استعاريّا يتجاوز الصّورة المرجعيّة الواقعيّة[٢] ليستمدّ منه الشّاعر العربي الأَخيلَةَ التي يبني عليها الصّورة الشِّعريَة في القصائد، أو من خلال اعتمادها موضوعًا شعريّا يؤطّر من خلاله القسمَ الثّاني من أقسام البنية النّموذجية للقصيدة العربيّة القديمة، قِسمَ الرّحلة والرّاحلة[٣].

بعد هذا المِهَادِ الذي كانت الغاية منه بيانَ استصناع العربيّ مطيّة لنفسه لسدّ حاجته إلى ما به يؤمّن مختلف الوظائف التي تتطلبّها الحياة في ذلك الفضاء الصّحراوي الذي حلّ به، سيعرض البحث إلى تجلّيات المطيّة وتمثيلها في رحلة الشّاعر العربي بمختلف أطوار تلك الرّحلة وأشكالها وضروبها.

١- يمكن مراجعة كتاب حنا الحتي «الإبل العربيّة الأصيلة، جروس بريس، لبنان، ١٩٩٠، ص١٠ وما بعدها.

2- Gueunier (Nicole): La production littéraire: métaphore, concept ou champ problématique? https://www.jstor.org/stable/41704366

3- Jacobi, Renate : «The Camel-Section of the Panegyrical Ode.» Journal of Arabic Literature, vol. 13, 1982, pp. 1-22.

١-١: مطيّته الشّاعر العربي في رحلته: الصّورة المرجعيّة للنّاقة

مهما كان مدى قرب البحث من الجوانب النّظرية والتصوّرات، فإنّه لا يمكن إغفال جانب مهمّ جدّا في دراسة هذا الموضوع، خاصّة إذا ما تعلّق الأمر بقصائد الشّعر العربي القديم، فالبحث يدرس إبداعا شعريّا لا يغادر موطنه الذي ينشأ فيه ولا يستقلّ عنه مهما بلغ البُعدُ التّخييلي مدَاهُ في نُصوصِه. فيدرس البحث المطيّة باعتبارها معطًى حضاريّا قائما في حضوره على تصوّرات غائيّة ماديّة أوّلا، تُسلِم إلى التصوّر الفكري والعقليّ، ويعبّر عنها بأدوات فنّية يَتكفّل بأدائها الشِّعرُ. لذلك يبدو لزاما الظَّفَرُ بفهم لتجلّي المطيّة وأدوارها في رحلة الشّاعر العربي في يَوميِّه، والمقصودُ الانتقال في المكان والزّمان والتّعويلُ على هذه المطيّة في توفير الطّعام والملبس.

لجأ العربيّ البدويّ قديما إلى النّاقة مَطِيَّةً للانتقال في المكان باعتبار الظّروف المحيطة به، التي لا تتيح له التنقّل بأدوات أخرى، لبساطة الحياة أوّلا من جهة الوسائل المعدّة للتنقّل، ولعسر الطّبيعة ومعطياتها الجغرافيّة ثانيا، وضرورة توفّر مطيّة قادرة على تحمّل مكاره الصّحراء وضمان الوصول إلى الوجهة المقرّرة، وهو ما توفّره النّاقة وتَضمَنُه للعربيّ في باديته. وقد أدرك العربيّ ذلك فطوّع النّاقة، ولم تكن مُطَوَّعَةً قبل ذلك في فضائه الصّحراوي. ولعلّها بدخولها مرحلة التّدجين مثّلت نُقلَةً ذات أهميّة كُبرَى بين الأزمنة العربيّة القديمة، بل إنّها كانت محدّدا حضاريّا فاصلا بين مرحلتين من حياة العرب القديمة، ربّما لم تحظ بما تستحقّ من دراسة (المقصود دخول الإبل مرحلة التّدجين والاستعمال البشري، لأنّها في عصور سابقة كانت حيوانا غير مروّض). ولعلّ مجال الدّراسة يضيق على تتبّع هذه الفكرة وما يترتّب عنها من مسائل مهمّة، سِوَى من تبرير اختيار النّاقة بدل الجمل لتنال تلك المنزلة وتحيط بها تلك الهالة من القداسة، وهو أمر

مهمّ سيعرض إليه هذا البحث لأنّه يقوم على دراسة ما يميّز النّاقة وخاصّة فكرة الخصوبة. وقد كان لبعض الشّعراء إجراءٌ طريفٌ تمثّل في تركيب الجنس في ذِكْرِ الإبِلِ؛ فكان أن ذَكَّرُوا النَّاقَةَ اعتبارًا لأنّ الذَّكَرَ في تصوُّرِهم أقدَرُ على تحمّل المشاقّ والصّعوباتِ وتَجَاوُزِهَا. وكان أن اختاروا النّاقة المؤنَّثَةَ لا الجَمَلَ، ثمّ أجرَوا عليها تعديلا صرفيّا تركيبيّا تمثّل في اعتماد أدوات الصَّرف لتذكيرها، فهي كلٌّ من هذا النَّمُوذَجِ الأَوفَى للكَمَال، وهُو الإبِلُ؛ أُنثًى لِتَضمَنَ الخُصُوبَةَ وتتأهّل لامتلاك القَدَاسَة التي كانت عند العرب أَعلَقَ بالمؤنَّث، ثمّ تُذَكَّرَ هذه المطيّة لضمان القوّة والقدرة. فالخُلَاصَةُ أنّهم «استَجْمَلُوا» النّاقة (أي وَسَمُوهَا بِصِفَاتِ الجَمَل، قِيَاسًا إلى قولهم «استَنْوَقَ الجَمَلَ»[١]) وعِوَضَ استدعاء صورة الجمل المذكّر، فقد جاءت ناقة مؤنّثة مُخصِبَةً تحيط بها هالة من القداسة وتُنسَبَ لها بعض صفات الجمل لتكون أكمل وتَحُلّ في أبهى صورة لها. ومن العجيب في بلاغة العرب القدامى التضادُّ المطلق بين استهجان استنواق الجمل وبين استحسان «استجمال النّاقة»[٢]. ويمكن عرض أمثلة كثيرة على هذا الاستعمال، منها قول للأخطل[٣]: [من البسيط]

عَلَى مُذكَّرَة تَرمِي الفُروجُ بِهَا غُولَ النَّجَاءِ إِذَا مَا استَعجَلَ الغَنَق

وغيره كثير عند جرير والفرزدق وغيرهما. سَخَّرَ العربيُّ، إذن، الإبل لتحمل متاعه، فكانت سفينته في صحرائه كما شاع عنها. وكان يعتمدها في حركته في المجال الذي يعيش فيه لأغراض مختلفة منها؛ الانتقال للبحث عن الماء والطّعام والكلأ.

١- استعمل الباحث مصطلح "استجمَلَ" بمعنى ألصق به / بها صفات الجَمَل، قياسا إلى القول المأثور عن طرفة بن العبد في حكمه على بيت للمسيّب بن علس، الذي يقول فيه: [مَن الطّويل]
وقَد أَتَنَاسَى الهَمَّ عندَ احتضَاره ... بنَاج عَلَيه الصَّيعَرِيَةُ مُكدم

٢- من طريف ما تتيحهَ اللّغة العربيّةَ وتصريفُ ألفاظها والاشتقاقَ فيها أنّ لفظ "استجمل" يتيح معان كثيرة؛ منها الأصليّ المقصود من استعمالنا "استجمل" وهو نسبة صفات الجمل إلى النّاقة، كما يمكن أن يذهب بالمعنى إلى تجميل النّاقة بصفات من سجلّ الذّكر، بناء على ما تفيده صيغة استفعل.

٣- الأخطل: الدّيوان، تح أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين، بيروت، ١٨٩١، ص٢٦٠.

وكانت النّاقة مطيّة ارتحال من مكان إلى مكان تحقيقا لقانون الظّعن الذي ظلّ يلازم البدو باعتباره نمط حياة، وكانوا يَتَسَلَّونَ عن الحبيبة التي رحلت وظعنت أو كان ضروريّا بينُها لأيّ دَاعٍ كَانَ، كالتوجّه إلى ممدوح لمدحه، حتّى تكون أداة لتجاوز ما خلّفته من آثار الرّحيل. يقول المسيّب بن علس[1]: [من الكامل]

إِذَا تَرَحَّلتَ مِن سلمَى بِغَيرِ مَتَاعِ قَبلَ العُطَاسِ ورُعتَهَا بِوَدَاعِ
فَتَسَلِّ حَاجَتَهَا إِذَا هِيَ أَعرَضَت بِخَمِيصَةٍ سُرُحِ اليَدَينِ وَسَاعِ

يمكن استخلاص ما كان للنّاقة من قيمة ومنزلة في يوميّ العربي وقضاء حوائجه. ولكنّ توظيفها لم يقتصر على هذا المجال، بل جاوزه ليمتدّ إلى مساحات أوسع وفضاءات أرحب في حياة العربيّ البدويّ خاصّة.

١–٢: تحوّلات صور المطيّة: المطيّة معنى شعريّا

حازت النّاقة منزلة على غاية من الأهميّة في تصوّر العربيّ البدويّ للحياة وتمثّله للوجود وتصريف شؤونه وتنظيم الحياة الذّهنية ومعتقده وفهم أسرار الحياة باعتبار حضورها تمثّلا مُطلَقًا للمطيّة وليس مجرّد حيوان يستعمله العربيّ في الحياة. وكانت وظائف النّاقة كثيرة متعدّدة في المجال التصوّري والمخيال العربيّ البدويّ، فقد مثّلت الإبل مُعَادِلًا موضوعيّا للشّاعر في رحلته في الأزمنة الوجوديّة[2]. ولعلّ أكبر تجلّ لذلك صورة ناقة طرفة بن العبد من معلّقته. جاوزت هذه النّاقة صورة أداة التنقّل البسيطة لتستحيل أيقونة أدبيّة في الفضاء الشّعري للقصيدة من خلال ما تجمّع حولها من علامات. وقد مثّلت النّاقة العلامة المهيمنة التي تجمعها ومن خلال تواتر الصّور الشّعرية التي كانت النّاقة مدارها، ولتستحيل

١- المسيّب بن علس: الدّيوان، جمع وتحقيق ودراسة عبد الرحمان محمد الوصيفي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص٤٣.
٢- روميّة (وهب أحمد): شعرنا القديم والنّقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب – الكويت، مارس ١٩٩٦. ص١٨٤.

أيضا تجلّيا لفكرة المطيّة بمنحاها التصوّري الذي يُخرِجُهَا من إطار المحسوس المُدرَكِ إلى إطار المُجَرّدِ الذي يؤهّلها لنقل الإنسان العربي في مدارات البحث عن تحقيق كينونته وإثبات ذاته، فتنصرف إلى جانب أدوات أخرى كالوشم والوشي لأداء أدوار وجوديّة.

لم يقتصر سعي العربيّ في صحرائه على البحث عن الطّعام والماء والكلأ لحيوانه، ولا كان هَدَفه متوقّفا على التنقّل للتّجارة أو الطّواف بالبة فَحَسبُ. لقد كان العربيّ يتنقّل في مدارات الوجود البشريّ بأطوارها النّفسية والوجدانيّة والفكريّة أيضا، يفكّر ويبحث عن مسارات يمكن من خلالها أن يؤمّن وجوده ويرسّخ حضوره في هذا العالم بعد تفكيك رموزه وفهم كُنهِهِ لأنّ الإنسان لا يفتأ يغالب الحياة وصنوف الدّهر ونوائبه وما يعرض في طريقه لتحقيق كينونته وأداء وظيفته التي تقوم على محاولة تطويع الموجودات لخدمة أغراضه وأهدافه الحيويّة والوجوديّة. إنّ النّاقة أقرب الحيوان إلى فؤاد العربيّ في صحرائه لأنّها توفّر كلّ ما سبق الحديث عنه من متطلّبات الوجود والاستمراريّة. ولكن ربّما لسبب آخر غير ظاهر تعلّق العربي بالنّاقة واصطفاها مطيّته في هذه المتاهات التي كان يخوض في دروبها بحثا عن تحقيق ذاته وتثبيت كيانه، وهو أنّ النّاقة مثّلت الكائن الأغرب والأشدّ ارتباطا بالأسرار والعجائب، وهو ما يجلوه النصّ القرآني في حديثه عن الإبل[١]. وتبدو النّاقة حيوانًا عجيبًا من خلال صفاتها وخاصّة قدرتها على التأقلم مع معطيات الفضاء الذي تعيش فيه، فضاء الصّحراء المُمحِلَة وظروف الحياة القاسية التي تتطلّب خصالا غير عاديّة لتحمّل القيظ الشّديد والصّبر على العطش والجوع في فَلَاةٍ لا طعامَ فيها إلّا من بعض نبات الصّحراء الذي يغلب عليه النّبات الشّوكي. كما تبدو النّاقة كائنا فريدا من خلال شكلها المختلف عن كلّ الحيوانات التي تعيش في ذلك الفضاء، وكذلك من خلال طباعها التي تقترب

١- انظر: الآية الكريمة: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت». الغاشية: ١٧.

في بعض مظاهر سلوكها من الإنسان في حنينها على وَلَدِهَا وبكائها الذي لا يمكن معاينته في غيرها من الحيوان. ربّما كان هذا السّبب في اصطفاء النَّاقة مطيّةَ العربيّ في رحلته على جميع وُجُوهِهَا التي ذُكِرَت.

يفيد في ذلك قول طرفة بن العبد من معلّقته[1]: [من الطويل]

أَمُوْنٍ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَصَأْتُهَا عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

جُمَالِيّةٍ وَجْنَاءَ تَرْدَى كَأَنَّهَا سَفَنَّجَةٌ تَبْرِي لأَزْعَرَ أَرْبَدِ

تُبَارِي عِتَاقاً نَاجِيَاتٍ وأَتْبَعَتْ وظِيْفًا وظِيْفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبَّدِ

وكان وصف طرفة للنّاقة متراوحا بين صفاتها المتعلّقة بعطائها في اليوميّ، وبين ما تعلّق بدورها في الرّحلة الوجوديّة للشّاعر أو الإنسان العربيّ المهموم بقضايا الوجود الإنسانيّ عموما.

تجاوز طرفة بن العبد في تصويره النّاقةَ صورتَها النَّمطيَةَ المعلومةَ في الطّبيعة، فاستحالت في معلّقته ناقةً عجائبيّةً أسطوريّة لا تتحقّق إلّا في القصيدة، ولعلّ مردّ ذلك الاحتفاءِ الذي أجراه طرفة في تصوير النّاقة أنّها أملُه الوحيد في الانعتاق من الواقع المتردّي الذي كان يعيشه، وكان الطّللُ سببًا غير مباشر فيه من خلال ما يضفيه من بؤس وفقدان أمل في الحياة. لقد مثّلت حياة طرفة بن العبد كما ترويها المصادر قصّة معاناة مزدوجة؛ معاناة عامّة وجماعيّة يشترك فيها مع سائر الشّعراء العرب الذين وقفوا بالأطلال ووصفوها وبيّنوا أثرها من أنفسهم، ومعاناة فرديّة نتيجة لما كان يلقاه الشّاعر من نبذ وإبعاد في مجتمعه المصغّر (القبيلة)، يقول من المعلّقة[2]: [من الطّويل]

١- الزّوزني: شرح المعلّقات السّبع، لجنة التحقيق في الدّار العالمية، معلّقة طرفة بن العبد، بيروت- لبنان، ١٩٩٢. ص٥٠.

٢- نفسه: ص٥٩.

إِلَى أَن تَحَامَتنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا وأُفــرِدتُ إِفــرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

كان الشّاعر العربيّ من خلال نموذج طرفة وغيره من الشّعراء القدامى[١] واعيا بأثر الطّلل باعتباره من متعلّقات الموت والفناء، فهو طلل يمحو آثار الحياة وما يتعلّق بها من البهجة والسّرور والأمل في الوصال. وقد تجلّى فعله في معلّقة طرفة من خلال صورة الوشم الذي كاد يمّحي رغم كونه رمزا للثّبات ومحاولة لتخليد ذكرى الإنسان، يقول[٢]: [من الطّويل]

لِخَـولَـةَ أَطــلالٌ بِـبُرقَـةِ ثَـهـمَـدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

ولمواجهة آثار الموت الماثلة في الطّلل، كان لا بدّ من فكرة الرّحيل للبحث عن عوالم أخرى ممكنة للحياة، وهو ما عبّر عنه الشّاعر تصريحا لا تلميحا في قوله[٣]:

وَإِنّي لَأُمضِي الهمَّ عِندَ احتِضَارِهِ بِعَوجَاءَ مِرقَالٍ تـرُوحُ وتَغتَدي

تستدعي فكرة الرّحيل مطيّة قويّة قادرة على تجاوز الصّعاب وتبليغ الشّاعر هدَفَهُ من الرّحلة وتَأمِينَهُ من أهوال الرّحيل المجهول في تلك المفازات المقفرة، فكانت النّاقة العجائبيّة التي صوّرها طرفة تصويرا طريفا مختلفا عن صورتها الأصليّة في المرجع الواقعيّ، فقد جاءت معادلة لسفينة البحر، اصطفى لها الشّاعر جودة الصّنع وعراقة الأصل «عدوليّة أو من سفين ابن يامن».

لقد استوت النّاقة على هيئة معمارٍ يُشَيّدُه الشّاعر فنّيا من خلال الصّورة

١- لا يقتصر استدعاء صورة النّاقة في تحقيق الرّحيل وتأمينه على طرفة بن العبد، بل هو أمر حاضر في أغلب الشّعر القديم، والجاهليّ خاصّة، ولكنّ حدود موضوع البحث جعلت التّركيز يكون على ناقة طرفة لاعتبارات من بينها أنّها تبدو أكمل تجلّيات تصوير النّاقة في الشّعر الجاهلي، ومن الأمثلة من غير شعر طرفة، قول امرئ القيس:
[من الطّويل]
ومنهُنَّ نَصُّ العيس واللّيلُ شَامِلُ ... تُيَمِّمُ مَجهُولًا منَ الأَرضِ بَلقَعَا
٢- الزّوزني: شرحَ المعلّقات السّبعَ، مصدر مذكور، ص٤٧.
٣- نفسه: ص٥٠.

الشّعرية متوسّلا بالوسائط البلاغيّة، فيقدّم صورة لمطيّة تَنشُدُ الكَمَالَ. تنافس هذه النّاقة مثيلاتها وتتفوّق من خلال تتبّع حركتها، يقول[1]:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وأَتبَعَت وَظِيفًا وَظِيفًا فَوقَ مَوْرٍ مُعبّدِ

تبدو النّاقة وكأنّها قد قُدَّت من معدن يأمن لها الخلود، ويواجه فعل الزّمان. يقول في ذلك[2]:

أَمُونٍ كأَلْوَاحِ الإِرانِ نَسَأْتُهَا علَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

ومن صفات النّاقة أنّها ممتلئة مكتنزة اللّحم مما يوحي بأنّها لا تحتاج إلى غذاء أو زاد يمكن أن يعطّل البحثُ عنهُ وطَلَبُهُ أداء وظيفتها في نقل الشّاعر مسافات طويلة، يقول الشّاعر من القصيدة نفسها[3]:

جَمَالِيَّةٍ وَجْنَاءَ تَردِي كَأَنَّهَا سَفَنَّجَةٌ تَبرِي لِأَزعَرَ أَربَدِ

تبدو صورة الاكتناز والامتلاء صورة ملحّة في تصوير النّاقة عند القدامى الجاهليّين خاصّة، فلعلّهم من خلالها يسعون إلى إبدال النّقص وسدّ الحاجة التي عندهم إلى القوت باعتباره عزيزا لا يتوفّر في كلّ حين، وهو أمر من متعلّقات حياة البدو. وما يدعم هذه الفكرة وصف امرئ القيس للنّاقة من معلّقته[4]: [من الطّويل].

ويَوْمَ عَقَرْتُ للعَذَارَي مَطِيَّتي فَيَا عَجَبًا مِن كورِهَا المُتَحَمّلِ

فَظَلَّ العَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وشَحْمٍ كَهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المُفَتَّلِ

١- الزّوزني: شرح المعلّقات السّبع، مصدر مذكور، ص٤٧.
٢- نفسه: الصّفحة نفسها.
٣- نفسه: الصّفحة نفسها.
٤- نفسه: معلّقة امرئ القيس. صص١٦ / ١٧.

ويُشَيِّدُ طرفة معالم بنيان النّاقة العجائبيّ من خلال تصوير تفاصيل هذا البنيان (أطراف النّاقة) إلى أن يبلغ الكمالَ في وصفها، فيستدعي لها صورة كلّية ينتقل بها من الخاصّ إلى العامّ، وهي صورة القنطرة عبر التّشبيه، يقول[1]: [من الطّويل]

كَقَنطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقسَمَ رَبُّهَا لَتُكفَنَنْ حَتَّى تُشَادَ بِقِرمِدِ

فتبدو النّاقة في تمام الكمال، وهو كمال تستدعيه المهمّةُ التي أُوكِلَت لها، والهدفُ من استعمالها والتَّعويل عليها، أي الانتقال من عالم الموت إلى عالم الحياة. فالمطيّة من جنس المهمّة التي أُنِيطَت بها. يبدو الشّاعر على وعي تامّ بمتطلّبات المطيّة وصفاتها لذا فقد خصّص لها حيزا من التّصوير تجاوز ما خصّصه لوصف الطّلل بكثير، وقد جعل الوصف دقيقا مفصّلا، وهو ما يوحي بوجود خطّة للخطاب الشّعري تُبنى وفقها أقسام القصيدة وصُوَرُهَا لتكون قادرة على نقل الشّاعر إلى عوالم الأمل والحياة.

٢- إبدال المطيّة وتخييل عوالمها في العصر العبّاسي:

لا يمكن لطفرة النّزوع إلى التّجديد وموجة المغايرة والاختلاف التي وسمت شعر القرن الثّاني للهجرة أن تخفي استمرار فكرة مركزيّة ثابتة في مسيرة الشّعر العربيّ باعتباره معبّرا عن وجدان الإنسان وتصوّراته، وهي فكرة الرّحلة في مسارات الحياة ودروبها وما تعلّق بهذه الرّحلة من وسائط وأدوات سخّرها العربيّ لذلك، وأهمّها مدار هذا البحث، وهي المطيّة. حيث لم يغب عن ذهن شعراء العصر العبّاسي، وعلى رأسهم أبو نواس بوصفه من أشهر الشّعراء المُولَّدينَ، أهميَّةُ وُجود مطيّة تُحَقِّق لمُتَطِيهَا غَايَتَهُ المتمثّلة في فهم الوجود وتفسير العالم المحيط به وتحديد منزلته منه وأدواره وكيفيّات ترسيخ فعله في هذا الوجود، وخاصّة تحقيق فكرة الانتقال من واقع الألم والمعاناة الإنسانيّة إلى

١- الزّوزني: شرح المعلّقات السّبع، مصدر مذكور، معلّقة طرفة بن العبد، ص٥٣.

تحقيق اللذّة وطلب الخلود. وبالنّظر إلى تحوّل المطيّة من صورة محسوسة إلى فكرة ذهنيّة، فهي قابلة للاستمرار مع تعديل هيئات حضورها وأشكاله بما يقتضيه الإطار الحضاريّ والفنّي الجديد الذي توَفَّر في ذلك العصر. فكان -حسب ما يبدو- أن استبدل شاعر القرن الثّاني، وهو يبحث عن المغايرة ويتَّبِع مَسَارَ التّنويع على القصيدة القديمة، هيئةً جديدةً لحضور المطيّة في أشعاره، فكانت مع أبي نواس مثلا الخمرة. ولا يقتصر حضور الخمرة مَطيَّةً في شعر أبي نواس على بعض النّصوص، بل يبدو ذلك جليّا في قصائد كثيرة. أدّت الخمرة وظيفة المطيّة بوضوح وتجلّت أكمل ما يكون أداةً طوّعها أبو نواس لتكون وسيلته في رحلته الوجوديّة والفنّية في التّفكير في منزلة الإنسان في الحياة وبلوغه مدارات جديدة للشّعر لا تُتاح، ربّما، بالتصوّر القديم للمطيّة، من ذلك قوله من قصيدته التي مطلعها[1]: [من مجزوء الرّمل]

غَـــرّدَ الـدِّيـكُ الـصَّـدُوحُ فاسـقِـنِي طَـابَ الـصَّـبُوحُ

ويمكن الإشارة في هذا المقام إلى الإجراء الفنّي الذي يعمد إليه أبو نواس، وهو التّخييل[2] بمعناه المخصوص القائم على انتقاء العلامات الشّعرية واختيارها من المرجع، وإعادة تشكيلها تشكيلا جديدا لتكوين صُورةٍ مُستَحدَثة، لها أصلُها باعتبار انتماء مكوّناتها إلى مراجع واقعيّة، ولكنّها خياليّةٌ في مستوى الصّورة الجديدة التي جُمعت عليها تلك العناصر. والطّريف في هذا التّخييل ليس التّعويل عليه في حدّ ذاته بل كيفيَّات إجرائه، فالشّاعر لم يُجره إجراءً عاديّا كما أجراه القدامى، بل نوّع في كيفيَّات الإجراء بأن جعل عمليّة الانتقاء تقع في ذهن المتقبّل وتُجرَى على صور ذهنيّة ليست موجودة في الأصل والمرجع، بل حفّز ذهن المتقبّل

١- أبو نواس: الدّيوان، دار صادر، بيروت - لبنان، د-ت، ص١٦٩.
٢- أيزر (فولفغانغ): التّخييلي والخيالي، تعريب: حميد الحميداني والجيلالي الكدية، دار توبقال، الدّار البيضاء، ١٩٩٨.

على إنتاجها بتوجيهه إليها انطلاقا من صور متكرّرة راسخة في ذهنه ينتقي منها ما يلائم المشهدَ والمعنَى المشتهَى والمنشودَ، إنّه تخييل في تشكيل الصّورة الشّعرية، ولكنّه قبل ذلك كُلِّه تَخييلٌ لِرَغبَة المتلقّي وأهوائه، فهو تخييل عاطفيّ مبنيّ على تخييل عرفانيّ يُدفع فيه المتلقّي إلى إنجاز عمليّة الانتقاء بين مستويين؛ مستوى المرجع العرفانيّ المكرّس في ذهنه، ومستوى هواه ورغبته وتصوّره لما سيكون في التّمثيل الشّعري. يتدخّل الشاعر في هذه العمليّة ويَبرُزُ دوره من خلال تَشْييدِ سَبيلِ التَّخييل وحُسن إدارة عمليّة التّمثيل بحصر إمكانات الاختيار والتَّقطيع والتَّركيب التي من المفترض أن يُنجزها المتقبّل في ذهنه، وهو منتشٍ لتوهّمه أنّه هو من اختار عناصر الصّورة ومآلها الدّلالي. ويظهر دور الشّاعر في سعيه إلى المواءمة في هذا الإجراء المبنيّ على اختيار فنيّ بين المُتَاحِ التَّليدِ والطَّارِفِ المتجلّي انطلاقا من تَنويعٍ لَطيفٍ في مستوى العمليّات الفنيّة التي يَدخل بها أبو نواس إلى فضاءات أوسعَ وأرحبَ كالفضاء العرفانيّ والعاطفيّ، وهي فضاءات وتُخُومٌ تفتح إمكانات الدّلالة وتيسّر الانفتاح على أفق أرحب للتّعبير من خلال إشراك المتلقّي في عمليّة إنتاج الصّورة الشّعرية بمراعاة هَوَاهُ ورغباته وانتظاراته، وإن إيهَامًا، وهو ما يُعَدّ جِدَّةً في طرائق النَّظْم واختيارات الشّعراء، ويكشف قدرة فائقة يتحوّز عليها أبو نواس يستثمر فيها القديم ويطوّعه لبناء جَديدٍ. يجعل هذا البِنَاءُ الباحثَ يتبيّن ملامح التَّجديد في شعر أبي نواس في مستوى الخصائص الفنيّة للشّعرية عنده، وهو أمر أبلغ من مجرّد تتبّع بعض مظاهر التّنويع والمغايرة في ظاهر النصّ.

٢-١: تحوّل تخييل المطيّة في نماذج من نصوص أبي نواس:

إنّ للمقام أحوالا وإنّ للأحوال أقوالا تناسبها، والأمر ينطبق على نظم الشّعر، فمتى كان الشّاعر قاصدا أمرًا في تجربته الشّعرية، وخَلَتْ له المقامات من كلّ ما

يمكن أن يفرض عليه طَوْقًا ويُنْفِذَ فيه شروطا، تَحرّكَ عمَّا كان مُجبَرًا على إتيانه وتَحَيّنَ فُرْصَةَ التّحرر من سلطة الواجب والمفروض ووازع الفرض والإلزام ومراعاة ظروف المقام ليجرّب ما تهفُو إليه نفسه وترى فيه أمرا يقتضي ما يفعل. كذلك أبو نواس الذي أَعْيَتهُ تَجرِبَتُهُ المتأرجحة بين رغبة جامحة في المجاوزة متلَازمة مع نَظَرٍ وَاعٍ بضرورة تعبير الشّعر عن واقع صاحبه وخوضه في مسائل تتعلّق بزمانه، وبين سطوة القديم وجبروته في مستوى المقام، المقام الرَّسمي والمرتبط بالإطار والذَّائقة النّقدية وصرامتها والخشية من الاتهام بالعجز عن مجاراة القدامى والخوف من النّعت بالشّعوبية ومخالفة الإرث العربيّ. وما انفكّ أبو نواس يقتنص الفرص ليجرّب ما يراه عتقا من قيود السنّة الشّعرية دون الخروج عن إطارها العام، عَمُودِ الشِّعرِ، وفي إطار الأغراض المكرّسة تلك التي تتيح له تجريب المجاوزة وقد أَمِنَ الاتّهام؛ وهو ما أتيح له من خلال تجريب مطيّة جديدة، هي الخمرة.

لقد أطّر الشّاعر في أمثلة من قصائده[1] محاولة تجريب المجاوزة والمغايرة والتّنويع على القديم أحسن تأطير بأن نظم قصائده وفق نظام الشّطرين وعلى بحور الخليل المعلومة، وقالها كثيرا منها في غرض مكرّس راسخ في الذّائقة الشّعرية العربيّة. كما أجرى الشّاعر التَّصرِيعَ في أمثلةٍ من نصوصه استدعاءً لمزيد الضَّمَانَاتِ، ولكن أيضا تجاوبا مع السّياق الاحتفاليّ لمضمون القصيدة. وانطلق من هذه الضَّمانات ليُجري تجربة التّنويع بأشكال وأساليب مختلفة، منها انتخاب إيقاع سريع وخفيف يُتِيحُهُ البَحرُ المستعمل.

لعلّ من أشدّ المظاهر الشّعرية تعبيرًا عن طلب المغايرة والسّعي إلى استبدال الوسائل القديمة بأخرى بديلة تغييبُ الوقفة الطَّلَلِيَة الذي يبدو واضحا وجليّا في المثال المذكور من قصائده وغيره من الأمثلة، ذلك أنّ افتتاح القصيدة التي أشار

١- المقصود قصيدته المذكورة، التي مطلعها: [من الرَّمَل]
غَرّدَ الدِّيكُ الصَّدُوحُ ... فاسقِنِي طَابَ الصّبُوحُ

إليها البحث كان بنقل «صوت الدّيك»، لكأنّه إيذان بانبلاج صبح جديد، قائم على الاستبشار بزمن غير زمن القدامى في الاستهلال وبناء النصّ، وهو صوت وُسم بالتغريد إيحاءً برغبة في الانتشاء والمرح والسّعادة، فجوّ القصيدة في مطلعها جوّ احتفاليّ لا حزن فيه يسعى من خلاله الشّاعر إلى إعلان القطع مع الموروث الشّعري القائم على الاستهلال البكائيّ الحزين. يتأكّد هذا الاتجاه والتّعلق به من جهة أبي نواس في الصّفة «الصّدوح» التي تتضمّن الدّلالة على إفشاء المكنون من الرّغبة وإعلانها بصوتٍ عال دون خشية أو مواربة. إنّه توجّه الشّاعر في تعامله مع نظم الشّعر وعلاقته بالقديم المتواتر، فلقد اختار أبو نواس أن يصدح بسعيه إلى تجاوز القديم، ويجاهر برغبته عن النّسج على منوال السّابقين، خاصّة لمّا لم يكن ذا عيانٍ لتلك الأطلال ومضاربها[1]. لكنّ الشّاعر يظلّ محكوما بالخشية من التَّجاسر كليّاً على السنّة الشّعرية، فيُجري التّصريع لغايتين كما سبق ذكره؛ وهما الإيهام بالتقيّد بسُنَنِ القدامى شكلا وظاهرا، ولكن بما يتماشى وسياق القصيدة وما لا يقطع عليه سبيل التّنويع والمغايرة. فالوفاء للقديم الذي انتخبه تجلّى أساسا في مظهرين إيقاعيّين خَدَمَا رغبته في المغايرة، فلا البحر السّريع ممّا يركبه القدامى في أجود نصوصهم، على أنّه من البحور الخليليّة المعترف بها، ولا التّصريع يُحدث إيقاعًا ولحنًا حزيًنا يدعم تأبيد فعل الطّلل، رغم حضور التّصريع سِمَةً لانسجام القصيدة وبعض شروط الشّعرية العربيّة القديمة. بل إنّها حرفة أبي نواس وقدرته على تطويع المتاح خدمة لخطّة الخطاب عنده. إذ يبدو بعد الاطمئنان إلى توفير تلك الضّمانات مُطلِقًا العِنَانَ لرغبته الماثلة في الموضوع الذي أراد الخوض فيه، وهو ما تجلوه علامة الخمرة المهيمنةُ في تشكيل الصّورة الشّعرية؛ من خلال أدواتٍ أوّلها فعل الأمر «فاسقني». ويدعم استعمال الفاء للنتيجة ما تبيّن فيما سبق ليسلكَ سبيل التّنويع والمغايرة. ويوحي نقل الأحوال الذي أجراه الشّاعر من

١- يُنظر قصيدة أبي نواس، من الدّيوان، ص٥٣٩، التي مطلعها: [من الكامل]
صِفَةُ الطُّلُولِ بَلاغَةُ القُدمِ ... فاجعَل صِفَاتِكَ لابنَةِ الكَرْمِ

خلال تركيب إسناديّ باستواء الأمر واستتباب حال النّشوة ومقام اللّذة للشّاعر في هذه القصيدة، فالفعل «طَابَ» يدلّ على حال مثاليّة ترتبط بتوفّر شروط المتعة ودواعي الحياة والفرح للشّاعر الذي قرَنَ الفعل وأجراه على موعد من مواقيت شرب الخمرة، وهو الصّباح في قوله «الصّبوح»، فالعالم يبدو جميلا مؤنسا طيّبا عند انبلاج الصّبح وابتداء النّهار بالخمرة التي كانت مهمّتها نقل الشّاعر من عوالم الخوف والقلق إزاء المصير الإنساني إلى عالم اللذّة التي تصرف انشغاله بانسراب الزّمان، ويتكرّر الأمر نفسه في قصائد كثيرة، منها قوله[1]: [من الكامل]

ذَكَرَ الصَّبوحَ بِسُحرَةٍ فَارتَاحَا وَأَمَلَّهُ دِيكُ الصَّبَاحِ صِيَاحَا

ومن أمثلة ذكر خمرة الصّباح أيضا، قوله[2]: [من الرَّمَل]

بَاكِرِ اليَومَ الصَّبُوحَا وَاعصِ فِي الخَمرِ النّصُوحَا

٢-٢: صورة الخَمرةِ مطيّةً لرحلة الشّاعر في الزّمان

يُعرف مَا للزّمان من قيمة وأثر في حياة أبي نواس وشعره، فهو لا يكاد يحيط به ويحاول بسط شيء من النّفوذ عليه، وقد ألفاه كما الشّعراء من قبله، عصيًّا على ذلك، فكأنّه يقتنص لحظة غفلة من هذا الزّمان من خلال الإبداء[3] والاستهلال بإدراج الخمرة منذ البواكير ولحظات الصّباح الأولى قبل أن يستقيم الأمر للزّمان لبسط نفوذه وحرمان الشّاعر من تقرير مصير يومه. وقد ربط الطِّيبَ بفعل السُّقيا، سُقيا الخمر وقدّم الأخير، إذ أن اليوم يكون ملكا لصاحبه إذا بادره بالإقبال على الخمرة في تصوّره. وهذه طريقة من طرق مواجهة الزّمان وفعله في

١ -أبو نواس: الدّيوان، مصدر مذكور، ص١٤٦.
٢- نفسه: ص١٦١.
٣- المقصود باستعمال الإبداء مصدرا، وهو تجوّزٌ، البداية المبكّرة أو السّبق في الابتداء، وهو مستفاد من استعمال الشّنفرى في لاميّة العرب، من ديوانه. تحقيق وشرح إميل بديع يعقوب. ط٢. دار الكتاب اللّبناني. ١٩٩٦. ص٦٩. في قوله: [من الكامل]
فأَيْمْتُ نِسْوَانًا وأَيْتَمْتُ إِلْدَةً ... وَعُدْتُ كما أَبْدَأْتُ واللّيْلُ أَلْيَلُ

شعر أبي نُواس، خاصّة وأنّ الخمرة كما سبق مطيّةُ الشّاعر في رحلته في الزّمان لتثبيت وجوده وأثره، كما هي مطيّته الفنّية في الشّعر لكونها العلامة الشّعرية الأبرز المهيمنة في نظام الإحالة، وهي كذلك الموضوع الشّعري الأبرز في شعره. ولا يفوّت الشّاعر الفرصة لاستغراق المتعة من خلال استغراق فعل الشّرب الذي يجلوه استمرار طلب السُّقيا دون حدّ أو قيد، بل إنّه اللّامتناهي الذي يمثّل حدودا لطلب الخمرة عبر معاودة فعل الأمر «واسقني» واستعمال الدَّلالة على استرسال الطّلب والفعل المتعلّق به في الزّمان إلى أن يبلغ حدود هذا الزّمان ويجاوزها فيكون خارج مداراته ويأمن بذلك الإفلات من سطوته، «حتّى» التي تُشفع بالمتناقضات «حسنا عندي القبيح» ومكمن الطّرافة، عدا الجمع بين المتناقضات، أثر الخمرة التي تُحَسِّنُ القبيح وتجمّل القميء، فهي تقلب المواضعات والأسس المتَّفَقَ عليها، وتُحِلُّ نظاما من الشّروط جديدًا مغايرًا لما هو سائد بفضل انعتاقها من سطوة الزَّمان، وهو ما يؤكّده قول الشّاعر في مثال آخر[١]: [من الوافر]

دَارَت عَلَى فِتيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُم فَمَا يُصيبُهُمُ إِلَّا بِمَا شَاؤُوا

ولكنّ هذا الرّأي لا ينفي أثر الزّمان وشدّة فعله في توجيه اختيارات أبي نواس الفنيّة، فلو لم يكن هاجس قطع اللذّة وفكرة سطوة الزّمان والاعتراف بقدرته جاثمة على كيان الشّاعر ما كان ليعطي بالًا له، ولا سعى إلى اقتناص فرصة لاستراق المتعة منه، ولعلّ هذا الأمر هو ما جعل أبا نواس يصطفي الخمرة من بين إمكانات أخرى للمطيّة باعتبار طبيعتها المخاتلة التي تمكّن من المناورة مع الزّمان، وهو ما ستبيّنه خطّة الخطاب الشّعري.

١- أبو نواس: الدّيوان، مصدر مذكور، ص٧.
ويمكن مراجعة بحث: كلود أودبير: أبو نواس والفتية في: Bulletin d›études orientales. Tome LX. Mai 2012.

يبني أبو نواس خطابَه في قصائده وفق خطّة واضحة المعالم تخضع لتدرّج وانتقال من أمر إلى أمر انتقالا منطقيّا، فبعد إجراء المواجهة بين أداته في حربه وبين هادم اللذّات وهو الزّمان في شعره، وبعد إثباته قدرة الخمرة وأهليّتها بأن تكون سلاحه وتأكيد قدرتها في مواجهة فعل الزّمان، يُجْرِي الوصف للتغنّي بها وتعديد صفاتها وشمائلها، من ذلك ما خصّصه لها من صفات طال تعديدها في قصيدته التي سبقت، وهو قوله[1]:

[من البسيط]

صَفرَاءُ لَا تَنزِلُ الأَحزَانُ سَاحَتَهَا إِن مَسَّهَا حجَرٌ مسّتهُ سَرّاءُ

يعلن الشّاعر عن مطيّته دون مواربة، وقد أمن عين الزّمان عليها فصرّح باسمها «خمرةٌ» واختار لها أُولَى صفاتها ولوازمها، أنّها معتّقة قديمة ضاربة في الزّمان. ويلوح أثر الأخير هاجسا يقضّ راحة الشّاعر إذ يبدو وقد أملى عليه ترتيبَ صفاتِ خمرته، فاستبق بذكر الخصلة الزّمنية لمزيد إحكام تحصين الخمرة وشدّ أزرها في مواجهة الزّمان. وقد جاءت الخصلة الزّمنية مدعومة ببعد دينيّ يحمل دلالات أنتروبولوجيّة، فهي خمرة في هيئة المقدّس لأنّها قُرنت بزمن نبيّ، ولكن الأهمّ من ذلك ما تحمله الإحالة على التّعتيق والقِدَم من دلالات؛ منها مواجهة الزّمان بإحدى لوازمه -والمقصود القِدَمَ- وما يحيلَ عليه من عراقة وأصل، فالخمرة ضاربة جذورُها في التّاريخ يعسُر مَحوُهَا[2]، وإنّ أهمّ الدّلالات التي تفيض عن هذا الاختيار في الوصف ما اقترن بقصّة النّبي نوح من تلاشي معالم الحياة وانحسار البقاء في ضرورات إنشاء حياة جديدة. فكأنّ الباحث، وهو يطّلع على

١- أبو نواس: الدّيوان.

٢- تظهر صفة التّعتيق ملازمة لخمرة أبي نواس، يلحّ عليها الشّاعر في قصائده، من ذلك قوله، من الدّيوان، ص١٤: [من البسيط]
مَا فِي قُعُودِكَ عُذرٌ عَن مُعَتَّقَةٍ ... كَاللّيلِ وَالِدُها وَالأُمُّ خَضرَاءُ

تلك القصّة، يقرأ تكوّن حياة جديدة من رَحِم العَدَم. وكأنّ التَّاريخ يبدأ هناك في تلك اللّحظة الفاصلة بين موتٍ وتلاشٍ، وبينَ بَعثٍ جديدٍ كانت الخمرة حاضرة فيه أساسا من أسس تلك الحياة التي انبثقت وجاوزت أثر الزّمان. تكتسب الخمرة حينذاك خصال الأزليّة والخلق الأوّل وعناصر التّكوين شأنها شأن الأسطقسات[١] الأربعة في مقولة تكوّن العالم، وشأن الأزواج من الحيوانات التي ضَمِنَت استمرار نسل الكائنات الحيّة وانتصار الإرادة الإنسانيّة محميَّة بالمباركة الإلهيّة في مواجهة الزّمان في القصص القرآني. بل إنّ هذه الخمرة ترنو إلى سمة زمنيّة أخرى وهي الأَبَدِيَّةُ لأنّها لا تزال حاضرة في زمان الشّاعر، لذلك جاءت الإشارة إلى تَمَاثُلِهَا مع عناصر التّكوين الأربعة التي لا تفنى بمرور الزّمان. والطّريف من غير ما ذُكِرَ أنّ الشّاعر يوظّف القِدَمَ والتعلّق بالماضي على نحو إيجابيّ مغاير لما تعوّده القارئ لشعره في علاقته بالطّلل وكلّ ما ارتبط بالموروث الشّعري والحضاري القديم. فهو يُخَيِّلُ المتاحَ من خلال انتقاء خصال وخصائص واتِّجَاهَاتٍ في فهم منظومة القِدَم وتصريف تلك الخصائص في فهم مَخصوص يجعلها تواجه الزّمان في صَفِّ أبي نواس. فكأنّه يوظّف أحد جُندٍ الزَّمان، وهو «القِدَمُ»، ليواجِهَهُ به من خلال تصريفه تصريفًا مغايرًا لصالح الخمرة، التي يحاول الشّاعر من خلالها تأبيدَ لحظة المتعة بعد تأصيل سَبَبِهَا، فتلوح الخمرة بذلك مطيّة مصطفاة بعناية كبيرة من خلال صفاتها التي تجعل الشّاعر من خلالها قادرا على بلوغ غاياته، فتجده يفاخر بقضاء عمره في شرب الخمرة متغلّبا على أثر الزّمان وفعله من خلال الذّهول عن هذا الفعل، يقول[٢]:

١- الأسطقسات الأربعة، أو عناصر التّكوين: الماء والهواء والتّراب والنّار. ولمزيد التوسّع في هذا المبحث، راجع غاستون باشلار.
Bachelard (Gaston): La terre et les rêveries de la volonté. Les Massicotes. CORTI. 1945

٢- أبو نواس: الدّيوان، مصدر مذكور، ص٧٥.

[من الوافر]

ولَـكِـنِّـي فَـتًـى أَفـنَـيـتُ عُـمـرِي بِأَطيَب ما يَكُونُ من الشَّرَابِ

وهو تصريح يعلن فيه أنّه اتّخذ الخمرة مطيّة لإمضاء هموم الزّمان وما يخلّفه عند بلوغ الإنسان مرحلة المشيب.

٢-٣: صور متعلّقات المطيّة في رحلة أبي نواس ودلالاتها

تشتمل الخمرة، انطلاقا من هذه الصّفات القويّة التي ذُكرت، على سجلّ من الخصائص شَدِيدٍ ومَتِينٍ، ولكنّها، لوقوع صفة الخلود فيها وتميّزها بخصال تتجاوز الزّمان وترنو إلى المطلق، لا بدّ أن تجمع المتناقضات؛ فكان أن وسمها أبو نواس باللّطافة واللّين وذلك عبر سلسلة من المتعلّقات التي جاءت في صور شعريّة محكمة السّبك تنادت إلى الخمرة لتجعلها تمتلكها، وأوّلها التمنّع لندرتها ونفاستها والخشية من ضياعها في قوله «نحن نخفيها» في القصيدة المذكورة آنفا، وثانيها طيب الرّائحة التي تضارع المسك الطَّيِّبَ ينتشر في المكان بمجرّد حلوله به «طيب ريح، فتفوح»، وهي تضارع الأنثى التي تغنَّى بها القُدَامَى، فالحال أنّ أبا نواس يستحضر وسم القدامى للمرأة المحبوبة ويُكيّفه للخمرة التي ساوت المرأةَ عنده وفَاقَتهَا نفَاسَةً، فَطِيبُ الأولى فائح قويّ الرّائحة لا يحدّه أيّ حاجز عن نشر عَبَقِهِ في الفضاء الذي يحوي الشّاعرَ ونداماه. يستعمل الشّاعر لذلك الفعلَ «يأبَى» الذي يدلّ على مجاهدة الطّيب للانتشار، وهو أيضا فعل مستلٌّ من معجم الغزل العربي القديم الذي كان يُنسب للمرأة الفاتنة السيّدة التي تتمنّع عن الوصال ليكون هذا التمنّع تمام صفات الكمال الأنثويّ عندها. ويظهر تعويل الشّاعر على جمع المتناقضات والأضداد في وسم الخمرة / المطيّة لتبلغ الكمال في نصّ آخر من نصوصه، وذلك في قوله[1]: [من البسيط]

١- أبو نواس: الدّيوان، ص٧.

دَع عَنكَ لَومِي فَإِنَّ اللَّومَ إِغرَاءُ وَدَاوِنِي بالتي كَانَت هِيَ الدَّاءُ

ومن المهمّ الملاحظة أنّ أبا نواس لم يعمد إلى هدم المنوال الشّعري القديم هدمًا كاملًا، بل اختار، ربّما لعدم قدرته على التّجاوز المطلق ووعيا منه بأهميّة الإفادة من ذلك المنوال في مستوى إثراء الصّورة الشّعرية عبر استدعاء عناصر من النّظام العلاميّ القديم، علاماتٍ مهيمنةً وأخرى فرعيّة من مثل ما جاء به في قصيدته التي يقول منها:

فَكَأَنَّ القَومَ نُهبَى بَينَهُم مِسكٌ ذَبِيحُ

فقاد استدعى ثنائيّة (الأنثى / المسك) وأعاد إنتاجها بما يلائم حاجيات الشّعرية عنده، إذ عوّض المرأة بالخمرة وأبقى على متعلّقاتها (طيب المسك)، فحقّق الانتقال من مطيّة سابقة عليه في الزّمان وسمت شعر الغزل في العصر الأموي إلى مطيّة جديدة هي الخمرة من خلال علامة المسك التي يمكن أن تكون جامعا لنَوْعَيْ المَطِيَّةِ، باعتبار أنّ المسك يمكن أن يمثّل متعلّقا من متعلّقات المرأة، ومشبّها به للخمرة في آن. إنّها عمليّة تكشف عن قدرة في النّظم ظاهرة، إذ أنّ مجاوزة القديم المكرّس بالإفادة منه والتَّنويع على الشّعرية التّقليدية من داخلها أمور ليست هيّنة، تتطلّب وعيا بأساليب النّظم ومعرفةً بكُنْهِ الشّعرية القديمة وإدراكا لما تطلّبه الشّعرية الرّاهنة فيما يمكن وَسمُهُ بمواضع الوصل والفصل في الشّعر، أي إدراك المساحات الممكنة في التَّنويع والأسس الضّرورية التي ينبغي إقامتها انطلاقا من المتوارث القديم وحدود هذا وذاك، وتضمن التّعالق والارتباط والاستمرار في فكرة المطيّة باختلاف أشكال حضورها وصوره. وهي أمور ترفع شعر أبي نواس درجات في مراتب الشّعرية وإتقان سُبُلِ الإجادة[١]. يرتفع البنيان المشيّد لتلك الصّورة الطَّريفة للخمرة عبر تشخيص المِسْكِ ونسبة الفعل

١- المنّاعي (مبروك): في إنشائيّة الشّعر العربي، دار محمد علي، تونس، ٢٠٠٦. فصل: حجّة الشّعر: قراءة في «دع عنك لومي».

إليه، بجعله يُذبح حتّى تتولّد رائحة الطِّيب منه وتفوح في الأرجاء، وهو ضرب من التّصوير مخصوصٌ يجعل سامع شعرَ أبي نواس يتمثّل أمام ناظريه صورة مجسّمة للمسك حتّى كأنّه يرَاهُ. ويمكن اعتبار التّصوير في هذا المقام مخصوصا لأنّ الشّاعر يقدر على جعل السَّامع يتمثّل عيانا صورة حسيّة ليس لها أصل حسيّ في الواقع المرجعيّ، أي أنّ المَلَكَة الشّعرية تظهر في استدعاء صورةٍ لمجرّد هُلَامِيٍّ يُدرَك بحاسّة الشمّ ولا يُرى، وتشكيلِها في هيئة حسيّة تجعل المتقبّل يتمثّل الصّورة العينيّة دون أن يفطن إلى عدم وجود أصل استعاريّ لها، وهو إجراء يضيف إلى المطيّة صفة غير اللذّة، وهي الطّيب والنّفاسة.

لعلّ من أهمّ الملاحظات التي يمكن استخلاصها من النّظر في خطّة الخطاب وأهمّ سماته، وجودُ علامة مهيمنة كبرى (صورة غالبة) تحضر في أغلب قصائد أبي نواس. تبدو هذه العلامة المهيمنة متمثّلة مرّة في (الاستغراق)، وهي علامة تجمع بين مَنحًى أسلوبيّ، وبين مَنحًى دلاليّ تؤدّيه في مختلف مضانّ النصّ؛ ومن أمثلتها ما ذُكِرَ، من استغراق الزّمان بالإبداء، أي السّبق في الانطلاق في الفعل «الصّبوحُ»، ثمّ الاستغراق في كميّة الخمر وفي فعل الشّرب «حتّى تراني»، والاستغراق في القِدَم أوان وصف الخمرة «خمرة تذكر نوحا»، وكذلك الاستغراق في انتشار رائحة المسك «فتفوح، مسك ذبيح»، كما يمكن أن يُستَشَفَّ الاستغراقُ في خطّة الخطاب الشّعري التي تؤطّر القصيدة وتُوَجِّهُ شِعريَّتَهَا من خلال استقدام الموروث في بعض عناصره وتطعيمه بعناصر الجدّة التي يراها أبو نواس ضروريّة لجعل القصيدة «معبّرة عن زمانها» قادرة على الإفصاح عمَّا يختلج في ذات الشّاعر من مآربَ وأهواء. ويمكن أن تكون العلامة المهيمنة (الخصب) في بعض القصائد، و(الحياة) في قصائد أخرى. يبدو أبو نواس واعيا بكيفيات التَّشكيل الشّعري للنصّ وشروطه، ومن أهمّها وجود خيط ناظم أسلوبيًّا ودلاليًّا

يسري في القصيدة بأكملها ليجعلها منسجمةً، مُتَّسِقَةً صُوَرُهَا مُنسَجِمَةً مَعَانِيهَا، تتفرّع في القصيدة ولكنّها تجتمع في إضفاء صفات القداسة والخلود والدّيمومة للمطيّة التي تحتاج أن تشتمل على تلك الصّفات لتحقّق وظيفتها.

الخاتمة

إنّ النّظر إلى عناصر الشّعر العربي قديمًا نظرًا دقيقًا يتجاوز اعتبارها تجليّات لصور المرجع الواقعيّ يمكّن الباحث من فهم معمّق لتركيبة هذه العناصر ودورها في بناء عالم القصيدة، لأنّ همّ الشّاعر العربيّ القديم لم يكن أبدا تصوير واقعه أو التّأريخ للأحداث التي تقع في زمنه، بل كانت غاياته أبعد من ذلك تتعلّق بالتّعبير عمَّا يعتمل في نفسه من أهواء وما تصبو إليه ذاته من عوالم يريد إدراكها، فإن لم يتحقّق ذلك في مستوى الحياة التي يعيش، فإنّه يسعى إلى إنشائه من خلال العبارة الشّعرية والصّورة التي يرسم في الفضاء الشّعري للقصيدة. أُجري هذا التصوّر في البحث على مكوّن أساسيّ في فكر الشّاعر العربي القديم، وهو المطيّة بكلّ متعلّقاتها، وذلك من خلال تتبّع الفكرة في أصولها وتحديد مكانتها في حياة العربيّ وكيفيّات تطويعها في تلك الحياة، ثمّ طُرُقِ استثمارها وتوظيفها في الشّعر، لتبيّن وجاهة الحديث عن تحوّلها من أداة انتقال في المكان إلى مطيّة وجوديّة تدخل عوالم القصيدة من خلال التّخييل. ونظر البحث في هيئات حضورها في الشّعر الجاهلي، ثمّ أشكال تحوّلها في مسارات الشّعر العربي وإبدالاتها وما يعادلها في كلّ تجربة شعريّة. وقد ركّز البحث على تجربتين؛ أولاهما القديمة التي كانت فيها النّاقة التّمثيل الأكمل للمطيّة في الحياة وفي الشّعر، وثانيتهما الجديدة التي أُبدلت فيها المطيّة في مستوى صورتها المرجعيّة، فعوضّت الخمرةُ النَّاقةَ وحافظت على منزلتها الاعتباريّة والتّخييلية في الشّعر أداة تجريب لدخول عوالم وفضاءات وجوديّة وفكريّة تلبّي ما يهفو إليه الشّاعر العربي في العصر العبّاسي من تطلّعات وما يرغب في تحقيقه من آمال.

ومن أهمّ النّتائج التي توصَّل إليها البحث، أنّ:

فكرة المطيّة لم تغادر ذهن الشّاعر العربي في مختلف الأزمنة التي مرّ بها الشّعر العربي.

استبدال المواضيع المركزيّة في الشّعر لا يستتبع إلغاء فكرة المطيّة، إنّما هي أشكال مختلفة لحضورها تتنوّع حسب الزّمان ومقتضيات التّعبير الشّعري عند كلّ شاعر أو جيل من الشّعراء.

فكرة المطيّة ظلّت الأمل المنشود الذي يستصنعه الشّاعر لنفسه للتّجاوز والعبور والانتقال من الواقع المؤلم إلى العالم المنشود الذي يحتوي مقوّمات الحياة والأمل واللذّة.

صورة المطيّة قد استحوذت على الفضاءات النصّية في الشّعر وسخّر لها الشّعراء إمكانات تعبيريّة جعلتها ترتقي إلى نماذج للكمال، وذلك بحكم طبيعة المهمّة التي تشغلها المطيّة، فشيّد الشّعراء نماذج فريدة لهذه المطيّة من خلال ما تعلّق بها من صفات بلغت بها مراتب عليا من الاكتمال والتّمام، وجعلتها مطيّة قادرة على أداء وظيفتها.

الشّاعر العربي يبني نصوصه وفق خُطَطٍ للخطاب دقيقةٍ ومضبوطةٍ، وهي خطط تظهر وعيا في أعلى درجاته لِمَا تتطلّبُه الوظيفة الشّعرية.

قائمة المصادر والمراجع

العربيّة:

- القرآن الكريم (١٤٢٩هـ)، مصحف المدينة المنوّرة.
- الأخطل: الدّيوان، تح أنطوان صالحاني، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين، بيروت، ١٨٩١.
- أودبير (كلود): أبو نواس والفتية في: Bulletin d›études orientales. Tome LX. Mai 2012.
- أيزر (فولفغانغ): التّخييلي والخيالي. تعريب: حميد الحميداني والجيلالي الكدية، دار توبقال، الدّار البيضاء، ١٩٩٨.
- بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجّار، دار المعارف، مصر، ط٥، د-ت.
- جاد المولى (محمد أحمد) والبجاوي (علي محمد) وإبراهيم (محمد أبو الفضل): أيّام العرب في الجاهليّة، دار إحياء الكتب العربيّة، ط٢، ١٩٤٦.
- الحاج (حسن رائد): الناقة: الواقع والرمز: دراسة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ٢٠٠٥.
- الحتّي (حنّا): الإبل العربيّة الأصيلة، جروس بريس، لبنان، ١٩٩٠.
- روميّة (وهب أحمد): شعرنا القديم والنّقد الجديد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب - الكويت، مارس ١٩٩٦.
- حسين (طه): حديث الأربعاء، الطّبعة ١٤، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣.
- ستيتكيفتش (سوزان): القصيدة العربيّة وطقوس العبور: دراسة في البنية النّموذجيّة»، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، المجلّد الستّون، ج١، يناير ١٩٨٥.
- الضبّي (المفضّل): المفضّليات، تحقيق عبد السّلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، د.ت.

- عبد العالي (بشير): صورة النّاقة في النصّ الجاهلي، اتّحاد الكتّاب العرب، ٢٠٠٦.
- ابن عبد ربّه: العقد الفريد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
- ابن علس (المسيّب): الدّيوان، جمع وتحقيق ودراسة عبد الرحمان محمد الوصيفي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٣.
- فرغلي (سعيد): أنسنة الخمر في شعر أبي نواس: مقاربة تأويليّة، مجلّة كلية الآداب، جامعة بورسعيد. العدد ٢٥، يوليو ٢٠٢٣.
- الكندي (سلام): الرّاحل على غير هدى: شعر وفلسفة عرب ما قبل الإسلام، تعريب محمد بنعبود، دار الجمل، كولونيا - ألمانيا، ٢٠٠٨.
- المنّاعي (مبروك): في إنشائيّة الشّعر العربي، دار محمد علي. تونس ٢٠٠٦.
- أبو نواس: الدّيوان، دار صادر، بيروت - لبنان، د - ت.

الأجنبيّة:

- Bachelard, G: La terre et les rêveries de la volonté. Les Massicotes. CORTI. 1945.
- Barnes, J: Teleology. Aristotle: A Very Short Introduction, Very Short Introductions. Oxford Academy (17). 2000.
- https://doi.org/10.1093/actrade/9780192854087.003.0017
- Bruno (Paoli): Deux études sur la poésie bachique arabe: 1. Les précurseurs d'al-Hîra. Hal open science. 2008.
- Gueunier, N: La production littéraire: métaphore, concept ou champ problématique? Littérature, 14, 1974. https://www.jstor.org/stable/41704366
- Jacobi, R: The Camel-Section of the Panegyrical Ode. Journal of Arabic Literature. (vol. 13). 1982. https://www.jstor.org/stable/4183059
- Titlestad M: Contesting Teleology as Literary Interpretation. In Research in African Literatures. (Vol 48. N2). 2017.
- https://doi.org/10.2979/reseafrilite.48.2.06.

Bibliography:

- The Holy Quran, the Qur'an of Medina. (1429 AH).
- Al-Akhtal: Al-Diwan, edited by Antoine Salhani, Catholic Press of the Jesuit Fathers, Beirut, 1891.
- Audibert (Claude): Abū Nuwās and the Boys in: Bulletin d'études orientales. Tome LX. May 2012.
- Iser (Wolfgang): The imaginary and imaginative. Translation: Hamid Al-Hamidani and Al-Jilali Al-Kudiya, Dar Toubkal, Casablanca, 1998.
- Bachelard, G: The earth and the reveries of the will. The Massicotes. CORTI. 1945.
- Brockelmann (Carl): History of Arabic Literature, translated by: Abdel Halim Al-Najjar, Dar Al-Maaref, Egypt, 5th edition. W. D.
- Bruno (Paoli): Two studies on Arabic Bacchic poetry: 1. The precursors of al-Hîra. Hal open science. 2008.
- Gueunier, N: Literary production: metaphor, concept or problematic field? Literature, 14, 1974. https://www.jstor.org/stable/41704366
- Jad Al-Mawla (Muhammad Ahmed), Al-Bijjawi (Ali Muhammad), and Ibrahim (Muhammad Abu Al-Fadl): The Days of the Arabs in Pre-Islamic era, Dar Ihya Al-Kutub Al-Arabiyya, 2nd edition, 1946.
- Al-Hajj (Hassan Raed): The Camel: Reality and Symbol: A Study in Arabic Poetry until the End of the First Century AH, Master's Thesis, University of Aleppo, 2005.
- Al Hitti (Hanna): Purebred Arabian Camels, Gross Press, Lebanon, 1990.
- Rumiyah (Wahb Ahmed): Our Old Poetry and New Criticism, Alam Al Maerefa Series, National Council for Culture, Arts and Literature - Kuwait, March 1996.
- Hussein (Taha): Wednesday's discourse, 14th edition, Dar Al-Maaref, Egypt, 1993.
- Stetkevych (Susan): The Arabic Poem and Rites of Passage: A Study in the Typical Structure,» Journal of the Arabic Language Academy in Damascus, Volume Sixty, Part 1, January 1985.
- Early Islamic Poetry and Poetics, The formation of the classical islamic world. Routledge, London- New York. 2016. Volume 37.

- Al-dabby (almufddal): Al- mufaddaliyyāt, edited by Abdul Salam Muhammad Haroun, Dar Al-Maaref, Egypt. W. D.
- Abdel-Aali (Bachir): The Image of the Camel in the Pre-Islamic Text, Arab Writers Union, 2006.
- Ibn Abd Rabbih: Al Ikd al farid, Dār al-Kutub al 'lmiyyah, Beirut, 1st edition, 1404 AH.
- Ibn 'Alas (al- musayyab): Al-Diwan, compiled, edited and studied by Abdul Rahman Muhammad Al-Wasifi, 1st edition, Library of Arts, Cairo, 2003.
- Farghaly (Saeed): The Humanization of Wine in Abu Nawas's Poetry: An Interpretive Approach, Journal of the Faculty of Arts, Port Said University. Issue 25, July 2023.
- Al-Kindi (Salam): The Departed Without Guidance: Poetry and Philosophy of the Pre-Islamic Arabs, Translated by Muhammad Ben Aboud, Dar Al-Jamal, Cologne - Germany, 2008.
- - Al-Mannai Mabrouk: On the poeticity of Arabic Poetry, Dar Muhammad Ali. Tunisia 2006.
- Abū Nuwās: Al-Diwan, Dar Sader, Beirut - Lebanon. W. D.